محاولة في البحث عن:

إيديولوجية اللغة

بقلم: كمال حمدي
ماجستير في الآداب بالقاهرة

ما أن تكونت أول جماعة انسانية ـ أيا كان طابعها ـ ازاء قوى الطبيعة حتى نشأت البيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده على هذا الكوكب . وصحبت معها مشاكلها الخاصة الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة فى نوعها ، تولد النشاط الانسانى فى استخدام الصوت لتكوين ألفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الاصوات بما يتبعه من مسلك ذهنى لفهم مدلولها اللفظى عن طريق الاذن . تجسد هذا النشاط الانساني المتميز عن كائنات الطبيعة الاخرى ، فى صيحات موسيقية توحى بمعان سحرية ، تدل على الخوف والغضب وطلب النجدة ـ مثلا ـ تختلف فى دلالتها باختلاف موسيقاها.

هكذا كانت بداية اللغة الــتى استخدمت للتعبير الرمزى عن الأفعال والكائنات الحية والجامدة ، بذلك تكون العنصر الأساسى للبيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده . فاللغة بظهورها كمرحلة عليا فى ماجريات التطور ، خارجة خروجا تلقائيا من صور سبقتها للنشاط الحيوانى ، كان رد فعلها الحتمى هو تحويل تلك الصور والضروب التى كان السلوك الجماعى يجيء على غرارها يضيف بعدا جديدا الى أبعاد الخبرة الانسانية ، ما نطلق عليه **انسانية الوجود** ، فالتعبير الرمزى عن الأشياء ، يحولها من أشياء قائمة بذاتها منفصلة عن الوجود الإنسانى ، الى جزء من هذا الوجود ، فمثلا تسمية الساق الخشبية المنبثقة من الارض والمنتهية بأفرع ووريقات خضراء ، بلفظ شجرة، هو بمثابة اذابتها فى الوجود الانسانى ، تقع تحت سيطرته ، وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء ـ أى اطلاق لفظ لغوى عليه ـ هو الخطوة الاولى للسيطرة على وجوده ، ومزجه بالوجود الانسانى بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن هذا الوجود . والقوة فى التعبير الرمزى عن الشيء بلفظ لغوى تكمن فى امكان إنبثاق مواضيع من هذا الرمز لا تمت للشيء المرموز به اصلا بصلة مباشرة ـ وان كان هذا لا يتم الا بعد عدة مراحل من التطور اللغوى ـ ومن هنا يتبين الفرق الأساسى بين التعبير الرمزى عن الاشياء والافعال برسمها والتعبير الحركى للفعل ـ الرقص ـ الذى من الصعب أن يتولد عنه شيء آخر، بخلاف اللفظ اللغوى الذى يملك تلك الامكانية .

وليست على هذا الاساس البيئة التى يحيا فيها الانسان ، يعمل ويبحث ، مادية فقط ، بل هى بيئة ثقافية كذلك فأفعال الانسان ، وكيفية أدائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوى لجسده فقط ، بل البيئة والانسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافى المنبث فىالتقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والأهداف والمعتقدات التى تحملها الالفاظ اللغوية فى طيها وتوحى بها .

والمشكلات التى تبعث على التقصى والبحث انما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ولا تقتصر الاعضاء

التى تختص بهذه العلاقات على العين والاذن واللسان . بل من أدواتها كذلك تلك المعانى المتطورة على مر الحياة، مضافا اليها وسائل التكوين الثقافى .

تحتل اللغة ـ اذن ـ فى مركب العناصر التى يتألف منها المحيط الثقافى للانسان . مكانا ذا دلالة خاصة وهى تؤدى وظيفة ذات دلالة خاصة ايضا . فهى فى حد ذاتها نظام ثقافى ، على أنها منظور اليها من احدى وجهات النظر كنظام بين كثير من نظم ، ولكنها وهى :

1 ـ الأداة الرئيسية التى تنتقل بها سائر تلك النظم الأخرى والعادات المكتسبة .

2 ـ وهى الالفاظ التى تتغلغل خلال الصور ومضموناتها فى آن واحد معا . أعنى الانظمة الثقافية الاخرى ومضموناتها .

3 ـ فضلا عن ذلك فهى تتميز بتركيب خاص بها له قابلية التجريد باعتبار اللغة «صورة» من الصور ولهذا التركيب ـ اذا ما تجرد فى صوره ـ تأثير حاسم من الوجهة التاريخية . سنتعرض له فيما بعد .

اللغة التى نتحدث عنها الآن هى بأوسع معانيها ـ أعنى معناها الذى يضم كل وسائل التبادل ، كالآثار ـ مثلا ـ والشعائر والفنون التشكيلية ـ اللغة بهذا المعنى المتوسع هى الوسيلة التى تتقمصها الثقافة فتبقى وعن طريقها تنتقل ، وهى ذلك التدوين الذى يديم بقاء الحوادث . ويجعلها فى متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهة أخرى فان الافكار أو المعانى لا وجود لها الا فى رموز يستحيل فهمها دون الرجوع اليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز نوعا من البقاء الضرورى لوجود الاشياء المرموز اليها ، بعد أن كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزى عنها .

دينامية اللغة

واذا أردنا ان نضيق من نطاق البحث بعض الشىء فنحد من معنى اللغة الواسع . لنعنى باللغة هنا اللغة المكتوبة والمتكلم بها فى صورة ألفاظ فقط ، فاننا نحصر على ضوء هذا التحديد أهم أهدافها الرئيسية فيما يلى :

1 ـ هى أداة التفكير الانسانى . فالقاموس اللغوى الذاتى يشكل الى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 ـ نقل الافكار والمشاعر من انسان الى آخر ..

ويلاحظ أن الهدفين السابقين ينبعان من ذات الانسان كوجود مستقل ويتجهان اثر ذلك اتجاهين متضادين أحدهما الى خارج ذات الانسان . يقوم بعملية نقل الافكار والمشاعر ، والآخر الى داخل الذات . حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمحصلة للهدفين السابقين ينشأ الهدف الثالث للغة .

الهدف الاجتماعى

«من لم يتكلم لغتك . فهو عدوك» كثيرا ما نعثر على هذا المثل وشبيهه فى المجتمعات البدائية ، باعتبار أن اللغة أهم مظهر لوجود الجماعة . والمحافظة على كيانها . واذا تدرجنا الى مستويات المجتمعات الحضارية ، نجد هنا أن اللغة عنصر ضرورى لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمبادىء تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال وعناصر الوجود المختلفة . تتجسد فى صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشىء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوى دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة أفراد مجتمع اللغة الواحدة . فاللغة باعتبارها شرطا ضروريا لتماسك المجتمع . انما تقع فى كونها من جهة ضربا من السلوك البيلوجى الخصيص بأدق المعانى ناشئا تلقائيا من المناشىء العضوية الاولى . وفى كونها فى الوقت نفسه ـ من جهة أخرى ـ تضطر الفرد الواحد من أفراد الناس أن يلتزم بوجهة نظر سائر الافراد الآخرين ، وأن ينظر الى الامور وأن يجرى عليها لابحث من زاوية لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها . بل تكون مشتركة بينه وبينهم باعتبارهم شركاء او اطرافا متعاقدة ان شئت فهى مشروع مشترك ، لا شك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلى الذاتى هو الموجه والهدف لنشوء اللغة ، ولكن الذى لا شك فيه أيضا أنها تهم أول ما تهم شخصا آخر ـ المستمع ـ أو أشخاصا آخرين يوجه اليهم المتكلم الحديث . لتكون وسيلة تفاهم بينه وبينهم تقيم شيئا مشتركا . ومن ثم بمقدار ما يكون لها من هذا الاشتراك تصبح ـ اللغة ـ عامة و «موضوعية»

ولما كان مصدر الالفاظ ينبع من ذات الانسان كوسيلة للتعبير ونقل الافكار والمشاعر للغير . على ذلك لا بد أن يتسم اللفظ بسمات ذاتية المتحدث به ، فلو

أننا قرزنا ، كتجربة عارضة ، مناقشة مفهوم الألفاظ العادية المتداولة ، وحاولنا أن نعرف معانيها المحددة عن كل فرد ، لادركنا بوضوح أننا جميعا نتكلم بلغات مختلفة ، لغات ذاتية ، لكل فرد منا لغة خاصة وألفاظ لها مفاهيمها الذاتية الخاصة بها . فاذا فرضنا وجود شخصين «أ» دارس للعلم و «ب» دارس للآداب ، يتحادثان ذات ليلة مقمرة ، يشير «أ» اشارة موجهة نحو السماء ويقول : «هذا هو القمر» . وينظر «ب» فى نفس الاتجاه مؤيدا اياه ، «نعم هذا هو القمر» لقد التقى الاثنان فى الرمز عن ذلك الكوكب المنير بلفظ «القمر». ولكن المشكل أن مفهوم «أ» عن القمر يختلف عن مفهوم «ب» . فـ «أ» عندما يشير الى القمر يفكر فى أنه كوكب معتم يدور حول الارض من اثر الجاذبية ، فى حين أن «ب» ينظر الى القمر على أنه الكوكب المنير فى دياجير الظلام ، ويبين حتما ذلك الخلاف فى أول تعليق يأتى بعد هذا الصمت اما عن طريق «أ» او «ب» عن تلك الرؤية لتوضيح الهوة فى التفكير بين الاثنين .

ولكن هل يقتصر الخلاف فى المفهوم الذاتى بين «أ» و «ب» فقط ؟ ان المجتمع يتكون من مجموعة ملايين من **أنماط مختلفة لا شك أن لكل منهم مفهوما ذاتيا عن «القمر» وغيره من الالفاظ** المتداولة الاخرى . وعلى هذا فمفهوم أى لفظ من الطريف أن نذكر هنا ملاحظتين تدلان على أهمية اللغة فى المحافظة على كيان المجتمع من الوجهة العسكرية ايضا . الملاحظة الاولى من مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية ترجمة الاستاذ خيرى حماد هى : «ويقال ان صلابة التخطيط اليابانى وتزمته والميل الى التخلى عن الهدف عندما تسير العمليات العسكرية وفى الخطط الموضوعة ، راجعان الى حد كبير الى ما فى لغتهم من طبيعة مزعجة وغير دقيقة بحيث تجعل من المتعذر ابتكار الخطط الجديدة ونقلها بواسطة اللاسلكى» .

الملاحظة الثانية نجدها فى « مطارحات ميكافيللى » ترجمة الاستاذ خيرى حماد ، وهى خاصة فى تفسير طول الصراع بين غير الرومانيين واللاتينيين «ويرد تيتونوس ليفى هذا التعادل بين الجيشين الى ما دار بينهما من حروب طويلة فى الماضى ، والى ما تميزا به من تعادل فى الروح الانضباطية ، **ومن تشابه فى اللغة** .

يتألف من كل ما يستدعيه ذلك اللفظ فى ذهن قائله أو سامعه ، من معان أو خواطر . أعنى أن كل ما يرتبط بالكلمة فى الذهن داخل فى معناها . فلو قلت لى لفظ «ميدان» مثلا وكان يرتبط فى ذهنى بهذا اللفظ صورة من قتال نشب وافقدنى شخصا ما وأحاط بذلك كله حزن ما زال ينشأ فى نفسى كلما ذكرت ذلك اللفظ ، كان كل ذلك داخلا فى معنى اللفظ بالنسبة لى .

فوجود لغة واحدة فى المجتمع ليست دليلا كافيا على أن التفاهم موجود بين الذين يتكلمونها ، والا فما معنى ان يظل عشرات من الناس يتناقشون ، ولا يخرجون بنتيجة ما ، يدل هذا على أن كل فرد من هؤلاء فى ذهنه فكرة محددة وتلك الفكرة يستخدم فى التعبير عنها ألفاظا بمفاهيم ذاتية مصدرها تجاربه وثقافته وبيئته الاجتماعية وأخيرا رؤيته الشاملة للحياة

ولكن اين أذن الاطار الثقافى االناشىء من اللغة والذى يعمل بدينامية مستمرة على وحدة وتماسك أفراد المجتمع قد يعترينا التشاؤم بفقد هذا الاطار أو على الاقل توهم وجوده فقط كخطوط الطول والعرض الجغرافيين . اذ أن اختلاف لفظ ما ـ فى جماعة ثقافية ـ كان التفاهم بين أفراد هذه الجماعة ـ بمقدار ذلك الاختلاف ـ مسدود الطريق ، ونتج عن ذلك سوء تفاهم مزمن بل قد ينتفى عنصر التفاهم الجامع بينهما من وجوده جذريا ولكن اذا نظرنا الى اللفظ من وجهة النظر المقابلة ـ وجهة نظر المجتمع لا الفرد ـ نجد أن تلك المفاهيم الذاتية للفظ الواحد المتعددة بتعداد أفراد المجتمع ، والتى أفزعتنا ، نجدها جميعا تنصهر فى بوتقة واحدة ، تمثل المستوى الحضارى للمجتمع بأكمله تمتزج امتزاجا كليا ، ليتكون منها المدلول الاجتماعى الخاص باللفظ ، وهذا المفهوم هو الذى يضطر الفرد الواحد ـ كما سبق ـ أن يلتزم بذلك المفهوم الاجتماعى للفظ فاذا اتسم مجتمع ما بالصبغة العلمية ، فهذا يعنى ـ مثلا ـ أن المدلول الاجتماعى للفظ القمر هو أنه كوكب معتم ، مهما اختلفت الرؤية الثقافية او التجارب الذاتية للفرد ، فهو ملزم بأن يعنى ذلك المفهوم للفظ ما دام نطق به ، فاللفظ هنا يحمل الى جميع أفراد المجتمع قدرا مشتركا من الافكار والمشاعر ، بجانب أنه يسمح بوجود أفكار ومشاعر ذاتية تصاحب ذلك المفهوم اللفظى . وعلى هذا فبقدر انتشار المفهوم

العام للفظ يكون تماسك المجتمع ، فالعلاقة بينهما علاقة طردية . وقد تختلف الآراء وتتعدد فى المجتمع الواحد ، لكنها ـ رغم اختلافها ـ لا تؤثر على وحدته وتماسكه ما دامت المفاهيم اللفظية للغة تشمل أكبر قدر من أفراد المجتمع .

وفى بعض الحالات الخاصة بألفاظ معينة ، نجد أن المشاعر الذاتية وحدها هى الشىء المشترك بين أفراد المجتمع بينما قد يختلف معنى اللفظ بينهم اختلافا بينا وعميقا . وبقدر ما يحمل ذلك اللفظ من مشاعر ذاتية مشتركة بين الجميع ، بقدر ما يكون لذلك اللفظ القوة على بعث التماسك الاجتماعى وتحريكه كمجموعة واحدة تجاه شىء ما ، فكلمات الاستعمار والقومية تبعث مشاعر ذاتية عند كل فرد من أفراد المجتمع العربى ـ مثلا ـ وهى رغم ذاتيتها المطلقة ، مشتركة مع مشاعر الناس الآخرين دون البحث عن اختلاف مفاهيمه بينهم ، فاللفظ هنا يفرض وجوده كـ «صورة» مجردا عن معناه .

واذا كان الفرد محدودا فى أفقه الثقافى وتجاربه الذاتية وخبراته الفنية والاجتماعية ، كانت لغته مجرد انطباع ـ الى حد كبير ـ للغة مجتمعه يستخدم الالفاظ بنفس مدلولاتها الاجتماعية ، بجانب مشاعره الذاتية لهذا اللفظ ، مما قد يدخل فى معناه ويؤثر فى لهجته ، ولكنه لا يملك الامكانية الثقافية والشخصية لفرض تلك المشاعر الذاتية على معنى اللفظ بطريقة ما ، ولذلك تبقى تلك المشاعر التى تضفى معانى ذاتية على ألفاظه اللغوية ، خبيئة نفسه ، وقد تظهر فى نطاق الاسرة ولاخص المقربين اليه الذين قد شاركوه تلك التجارب والخبرات الموحية بهذا المعنى ، وقد تتفجر تلك المشاعر الخبيئة عند قراءة قصيد شعرى ـ أو مقال فلسفى الى غير ذلك من الآثار الثقافية المختلفة ـ يستخدم فيه اللفظ بنفس المعنى الذاتى لديه .

أما اذا كان الفرد ممتازا فى ثقافته فانه يتأثر بلغة مجتمعه ، ويؤثر فيها بايجاد مفاهيم جديدة للالفاظ ، نتيجة لمشاعره وتجاربه الذاتية ، التى ينجح فى فرضها على المجتمع حتى تأخذ سمة المدلول الجماعى ، هؤلاء هم المسيرون لحركة اللغة ، يعملون على تطور مفاهيمها اللفظية ، الشاعر ، الفيلسوف ، المفكر ، العالم ، كل منهم يعبر عن أفكاره ومشاعره الناضجة التى يلبث فى تعميقها رأسيا وأفقيا ، حتى تتكشف له عن مفهوم جديد للفظ اللغوى ، يتفق مع مستوى ثقافته ووعيه وخبراته ونظرته الذاتية الى مقومات الاشياء المتناولة لديه ، ثم يعمل هو بعد ذلك فى نشر مفهومه الجديد وبقدر انتشار هذا المفهوم وبقدر تأثيره على الانسان البسيط ، يتغير المفهوم اللفظى ، وبذلك تتطور مفاهيم الالفاظ فى اللغة .

ولكن كثيرا ما يجابه الشاعر والفيلسوف والعالم والمفكر مشكلة سوء الفهم ، اذ انهم يستخدمون نفس الالفاظ ، ولكن بمفهوم مختلف عن مفهوم المجتمع ، فحقيقة المشكل ليس فى أنه لا يجد من يفهمه ، ولكن فى ان الجميع فهمه ، باعتقادهم الفهم وفقا للمفهوم الاجتماعى للفظ بصورة عامة ، ويحاول هو أن يوضح مفهومه الجديد بألفاظ هى الاخرى تفتقد امكانية التعبير عن مفاهيمه الجديدة يلجأ الفيلسوف للقضاء على هذا الاشكال بتحديد تعاريف لالفاظ موضوعه التى يريد تحميلها مذهبه أو فكره الجديد ، ولكن الاشكال يعود ليظهر فى صورة اخرى أكثر تعقيدا اذ أنه يحاول أن يوضح تعريفه الجديد للفظ ، بألفاظ هى الاخرى تحتاج الى تعريفات جديدة لتملك امكانية التعبير المباشر عن أفكاره الفلسفية ويؤثر العلماء استخدام الرموز بدلا من الالفاظ كلما امكن ذلك ، ليحدد بالرمز المفهوم المراد وحده ، ولا يختلط به شىء مما يعلق به من خواطر ومشاعر ذاتية بسبب استعماله فى واقع الحياة اليومية .

ويبدو المشكل أكثر تعقيدا فى ميدان السياسة والعلوم القانونية ، اذ يتخذ هذا المشكل ، وجهين متكاملين ، اولهما عدم الاطمئنان الى الاستدلالات اللفظية والاستناد بدلا عن ذلك الى الوقائع العملية فقط ، وعرض الحوادث عرضا مجسدا ، بغية اعطاء أساس صحيح للمحاكمات ـ كما يحدث عادة من تمثيل الجريمة مرة ثانية ـ أمام القضاء درءا من التأثر بالصورة اللفظية المعبر عنها فى المرافعات .

أما فى ميدان التعبير الفنى ، من خلال الملاحظات العابرة ، نجد أن الفنان التشكيلى والمؤلف الموسيقى لهما القدرة على تمثيل جملة العوامل الاجتماعية والثقافية فى المجتمع فيخلقان من هذا كله شكلا جديدا من أشكال التعبير الفنى يختلف عن الاشكال القديمة ويسبق الى

التجديد أى تطور خلاق للمفاهيم اللغوية ، ذلك لان الفنان هنا يستخدم وسيلة فنية خصبة مرنة للتعبير ، لا تتقيد بمفاهيم ودلالات محددة ، لذلك فالمذاهب الفنية - عادة - أسبق الى الوجود من أى تجديد يبدعه الشاعر والاديب الذى يعرض مفهومات جديدة للالفاظ ، مستفيدا من المذاهب الفنية السابقة للوجود والنضج .

وعلى المستوى الجماعى ، حيث تنبثق المذاهب والانظمة الاجتماعية الجديدة ، التى تحمل تغييرا جذريا للمجتمع ، يتعقد المشكل أمام تلك المذاهب الجديدة ، فاستخدام نفس الالفاظ اللغوية للتعبير عن تلك المذاهب ، يجعلها فى غير منجاة من التأثر بالانظمة والقوى الفكرية القديمة التى تستهدف تغيرها ومحوها تماما ، **فاللغة دائما تبذر بذور الماضى فى الحاضر - لتشكل فى الوجود نوعا من الاستمرار التاريخى - مهما بدا هذا الحاضر مناقضا بطبيعته للماضى .**

ولمحاولة تجنب هذا التأثير المطلق ، تضطر تلك المذاهب ، ابتداع ألفاظ جديدة تأخذ هى - المذاهب أعنى - فى اضفاء مفاهيمها الخاصة بما يتفق مع اتجاهاتها الفلسفية وبذلك تغذو الالفاظ الجديدة أبناءها الشرعيين ، تحتكرهم لخدمتها وتؤثر بهم على عصور المستقبل التاريخية .

- لعل مثال تغير الدين الوثنى الى الدين المسيحى فى الامبراطورية الرومانية يقرب الفكرة أكثر ، فمن الحق أن يقال ان الدين المسيحى لم يفلح تماما فى ازالة كل آثار ما قام به الرجال البارزون من اتباع الفلسفات القديمة ، وذلك بسبب الابقاء على اللغة اللاتينية التى وجدت نفسها ملزمة بالابقاء عليها لاستعمالها فى تدوين شرائعها الجديدة ، وكل من يقرأ الاجراءات التى اتخذها قادة الديانة المسيحية فى البداية يستطيع أن يرى ، ما أثاروه من ضجة للخلاص من جميع سجلات الماضى ووثائقه ..... كل هذا بسبيل القضاء على الفلسفات القديمة ، ولكن لو أضيفت الى جميع هذه الاجراءات لغة جديدة لنجت حقا من جميع تأثيرات الماضى ، أما استخدامها لنفس ألفاظ اللغة فى التعبير عن مضمونها الجديد بما تحمله تلك الالفاظ من دلالات فلسفية عميقة الغور ، جعلها بلا مغالاة تقع تحت سيطرة تلك الفلسفات » .

(مطارحات ميكافيللى - ترجمة الاستاذ خيرى حماد)

اللغة مصدر للتاريخ

ان الاعتراف بوجود «مستويات حضارية» خاصة بعصر أو ببلد معين ، والبحث عن « روح » عصر أو «ثمة» ثقافة ما ، فى المواقف والمفاهيم والرموز المشتركة التى تكشف عنها الاوجه الاجتماعية للحضارات ، يجب ألا يحملنا على اهمال المفاهيم المختلفة التى يكسبها الناس المعاصرون - التاريخية قيد البحث - لهذه الرموز اللفظية ، بل ان اختلاف وتطور تلك المفاهيم يمكن اعتبارها وثائق تاريخية تعيش بيننا ، وتشكل مصدرا لنوع من التاريخ نسميه اصطلاحا « علم تاريخ اللغة » .

هناك عناصر فى ثقافة أى مجتمع تعرف بالثوابت الثقافية ، كالاسرة ، والدين ، والمرأة ، والجنس التى وجدت فى جميع المجتمعات والتى توجد دائما ، ولكن مفهوم تلك الثوابت الثقافية هو الذى يتغير فى نطاق اللفظ ذاته ، أى يختلف دلالته من عصر الى آخر ، ومن مجتمع لغيره ، تبعا لاختلاف المستويات الثقافية لهذا العصر أو المجتمع ، فالمرأة مثلا تطور مفهومها اللفظى فى مجتمعنا العربى ، نتيجة لتغير مفهوم وجودها ، من مجال لاشباع الغريزة ، الى عنصر فعال لاستمرار الحياة ثم الى وجود ذاتى مستقل رغم ثبات اللفظ المطلق عليها .

ولا يتعين المحتوى الثقافى للفظ الا بمعايير مجردة ، كمعيار القيمة الحيوية للمنفعة او الاخلاق وفقا للفلسفة العامة المحركة لقيم هذا المجتمع فى ذلك الوقت ، فالحياة الاجتماعية الثقافية تتعلق بمواصفات ، تتعلق هى بدورها بمعايير أكثر عمقا ، يستطيع البحث النقدى اللاحق أن يكتشفها ، والافكار التى تؤثر فى العلاقات الاجتماعية والثقافية ، لا تنشأ ولا تبدأ فى التأثير منذ اللحظة التى تتلقى تعبيرا مجردا فى صورة لفظ ، بل على العكس ان التعبير المجرد يوجد بعد بحث وطول معاناة لتلك الافكار عن محتوى لفظى تتجسد وتستقر فيه فى النهاية ، وقد يعترض على ذلك بالقول : « ان الافكار لا يمكن أن توجد الا فى صورة لفظية حتى أثناء **عملية التفكير الصامت ، والرد على ذلك يكون بالقول** ان الفكرة توجد فى البداية فى صورة جمل لفظية مسهبة ، الى أن تبلور وتوجز فى لفظ واحد ومن هنا نشأت أهمية الدراسة التاريخية للالفاظ .

اننا ـ مثلا ـ نستطيع معرفة كنه الحيوانات المنقرضة التى كانت يوما ما تعيش على سطح الارض ، بدراسة ما خلقت من حفر وكذلك الالفاظ اللغوية . يمكن اعتبارها بمثابة تلك الحفريات ، فالمفهوم اللفظى اذن هو الشىء الحسى الذى نستطيع دراسته للاستدلال على الماضى الذى ما زال حيا فى حاضرنا .

ونهدف من هذا ، أن نبين أن نقطة البدء فى دراسة اللفظ هو مفهومه لا رنينه . ذلك لان الرنين فقط لايمثل الا الجسد الذى تعيش فيه روح اللفظ أى مفهومه . فاذا ادركنا أننا يجب أن نعرف ، ما كان الناس يقصدونه بألفاظ معينة مثل الحرية او القومية أو المساواة . فاننا نعنى الاشارة الى العاطفة التى دفعتهم الى خلق ذلك اللفظ اولا وأخيرا . فاذا ادركنا ذلك عرفنا القوة التى جعلت الحاضر مختلفا عن الماضى ، فعنصر استمرار هذه الالفاظ ـ رغم ما قد يطرأ على مدلولاتها من تغير ـ يعنى بالتبعية أنها ما زالت تحمل فاعليتها المؤثرة فى تشكيل التاريخ .

يجب أن يكون اللفظ قوة دينامية خلاقة تدفع للحركة والعمل ـ حين تكون مصدرا أساسيا للمؤرخ ـ بهذه الطريقة ، فالهدف التاريخى لدراسة اللفظ هو أن يتناول ذلك الذى ما زال حيا على كل لسان ، وذلك الذى ما زال يستهوى مشاعر كل انسان الالفاظ التى ما زالت تحتفظ بشذى عجيب يفوح منها . لقد اصبح من البديهيات منذ أن كتب دارون أبحاثه العلمية ، ان الانسان يستطيع فهم الشىء فهما جيدا اذا ما توصل الى أصوله ، ويصدق هذا على الالفاظ وما تنطوى عليه من معان ، لذلك يجب أخيرا أن يكون لدينا ـ فى صورة دائمة ـ قاموس يوضح مفهوم اللفظ ، فى الوقت المعاصر ثم بحث جدى موجز عن المدلولات التى كان يدل عليها منذ بدء ابتكاره كلفظ له فعاليته الخلاقة . وما ذلك الا لكي نعرف ما يمكن أن يدل عليه أكثر من هذا فى المستقبل ، وكما أن الشجرة يظهر عمرها كحلقات تخطها السنوات فى قطع من جذعها ، كذلك يدل مفهوم اللفظ على مرحلة من مراحل النمو فى حضارتنا الراهنة وعلينا أن ندرس تلك الحلقات كما نجدها اليوم ، واذا كانت الشجرة ـ ونقصد بها اللفظ ـ ما زالت مستمرة فى النمو فان هذه الحلقات نفسها تغير الى حد ما ، لان الشجرة تزيد ارتفاعا وضخامة ، مما يضخم صعوبة عملية الدراسة ، وفى الوقت نفسه يزيد من أهميتها .

ويجب ألا ينظر الى أى لفظ يطرح على بساط البحث كأنه شىء قد عفى عليه الزمن أو مات أو انتهى ، فربما ضعف ما فى اللفظ من حياة ، ولكنه مازال يحتفظ بقوته الدينامية الخلاقة وقد يبدو اللفظ أقل حياة لان هناك الفاظا أخرى قد نمت فوقه ، حجبته عن الوجود لفترة تاريخية محددة .. ومن هذه الوجهة لا تعتبر دراسة الالفاظ ـ خاصة القديم منها ـ كدراسة حفرية من الحفريات ، انقرضت نتيجة لافتقادها البيئة المناسبة . بل كدراسة كائن حى قد يكون فى فترة خمود ، علينا معرفة مفهومه القديم ، وما ذلك الا لكى نعرف ما يمكن أن يتمخض عنه من قوة دافعة ، فى ثوب مفهوم جديد قد يدل عليه فى المستقبل .

ولقد تتحول الالفاظ تحولا غير لغوى ، وذلك باضافة تراث سياسى ، أو ثقافى ، أو اقتصادى ، اليها . فكلمة المساواة تحولت الى «مبدأ تكافؤ الفرص» نتيجة لاضافات علم الاقتصاد اليها ، وهنا يجب على الباحث أن لا تخدعه مظاهر اندثار الالفاظ فمن واجبه أن يبحث عن اللفظ الآخر الذى يعتبر نوعا من الامتداد المستمر للفظ المندثر ظاهريا .

وبعد ... يختلف هذا النوع من البحث التاريخى ، اختلافا كبيرا عن تاريخ الحقائق وزمانها . لان الوسيلة المثلى لفهم مدلول لفظ هو الاحساس بهذا اللفظ كقوة دينامية خلاقة ، بصرف النظر عن دلالته اللفظية .

فالشعور أكثر أهمية فى المرحلة الناضجة من الحياة ، واذا أحس الانسان بما كان يحرك مشاعر أجداده ، غمره ذلك النوع من الشعور الذى يمكنه من القضاء على مشكلات الحاضر ، وخلق مستقبل أفضل .